محاضرة رقم 09: الأطر النظرية المفسرة لمشكلات الطفولة

يقال في علم النفس أن الطفل يبقى يعيش حبيس الخبرة الأولى في الانفصال، وهي الانفصال عن رحم أمه، وقد تم التعبير عنها على أنها باكورة القلق التي تطمس السعادة والسرور الأول الذي كان قبل الميلاد فالجنين كان في جنه.

يقول **أوتورانك** يقضى الإنسان بقية حياته لاستبدال هذا الفردوس المفقود بطرق مختلفة، ويرى أيضا أن الطفولة بأكملها ببراءتها وعفويتها يحتاجها الفرد للتغلب على صدمة الميلاد بصورة طبيعية، وكل ما ينتج وما يتخلل الطفولة من عصابية واضطرابات ما هو إلا اشارة إلى أن الطفل قد فشل في ذلك.

1-نظرية التحليل النفسي:

قدم فرويد نظرية للمراحل تختلف جذريا عن نظرية بياجيه، فهي تهتم بالجوانب الانفعالية والدافعية من الشخصية في الوقت الذي تهتم نظرية بياجيه في النواحي العقلية، على الرغم من أنهما يتفقان على وجود مراحل معرفة تعريفا جيداً.

بنى فرويد نظريته حول مراحل الطفولة معتمداً على اللذة التي يستشعرها الطفل من مناطق جسمه المختلفة في الأعمار المخلفة، والتي تقود في النهاية إلى الإشباع الجنسي في الحياة الناضجة البالغة. وباستخدام تعريف واسع وعام للجنس، أصبحت هذه المراحل تعرف بالمراحل السيكوجنسية. وهذه المراحل هي الفمية (الإشباع عن طريق الإخراج أو حصر الإخراج)، والقضيبية (الإشباع الناجم عن اللعب بالأعضاء التناسلية)، الكمون (والتي تغيب فيها الاهتمامات بالجنس وتتوجه بدل ذلك نحو البيئة)، وأخيراً التناسلية (التي تظهر فيها الاهتمام الجنسية الغيرية بشكل واضح.

إن كل واحدة من المراحل تأتي بشكل طبيعي، أما إذا حدث نوع من التثبيت عند مرحلة ما فإن بعض المشكلات المرتبطة مع المرحلة السابقة تبقى قائمة بعد انقضاء وقتها الطبيعي. ومن هذا المنطق فإن هذه النظرية تعبر فترات حرجة. وعلى الرغم من أن هذه النظرية قد كانت ذات تأثير كبير في تطور فكر الفكر السيكولوجي إلا أن عدداً كبيراً من علماء النفس لا يتقبلونها الآن.

بعد سنوات عدة شعر المحلل النفسي أريك أريكسون بأن المشاكل الاجتماعية التي يتعرض لها الفرد في أثناء نموه أكثر أهمية من المشاكل البيولوجية. لقد وصف أريكسون مجموعة من المراحل أوسع من المشكلات التي عليه في كل مرحلة من هذه المراحل.

2-نظرية إيركسون :

وكما هو الحال مع نظرية فرويد، فإنه بالنسبة لأريسكون أيضًا، يعتبر نمو الفرد مناسباً ومعقولا بالمقدار الذي يتمكن فيه من حل المشكلات التي تعترضه في مرحلة من المراحل. ومقدار نجاح الفرد في حل المشكلات السابقة سيقرر مدى نجاحه في حل مشاكله اللاحقة.

يذهب أريكسون (Erickson) إلى القول: إن عملية التطبع الاجتماعية تمر بثمان مراحل أو أطوار وهو في ذلك متأثر بعمق باتجاهات فرويد في هذه المراحل، ولقد افترض أريكسون هذه المراحل افتراضا. ولم يتوصل إليها عن طريق أعمال تجريبية إن خبرة أريكسون الطويلة في العلاج النفسي وخاصة مع الأطفال والمراهقين مكنته من أن يضع في نظريته درجة كافية من المواءمة للوقائع الاجتماعية التي يعيشها الفرد ليجعل منها خطة ناجحة في توجيه الانتباه إلى مشكلات النمو الاجتماعي.

وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الخطة تفتقر إلى الدقة العلمية المطلوبة من النظرية المرحلية. ولذا يجب أن ينظر إليها على أساس أنها نظرية اجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن المراحل التي يتكلم عنها أريكسون لا ترتبط بالنظام العضوي كما هو الحال مع نظرية فرويد، بل إنها ترتبط بشكل كبير مع خبرات التعلم التي يتعرض لها الفرد في أثناء حياته. يعتبر أريكسون أن كل مرحلة من المراحل الثماني تمثل أزمة نفسية تتطلب الحل قبل أن يتمكن الفرد من الانتقال إلى المرحلة التالية بسلام.

<u>مراحل نمو الشخصية لأريكسون:</u>

أولاً: تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة:

تشمل هذه المرحلة العامين الأول والثاني من العمر وتقابل مرحلة الرضاعة إن تغذية الطفل الجيد وإمداده بالمحبة والحنان في هذه الفترة ينمي في نفسه الشعور بالثقة والأمن والتفاؤل. أما إذا عومل معاملة سيئة فإنه يفقد الثقة والأمان. وقد أطلق فرويد على هذه الفترة المرحلة الفمية.

ثانياً: تعلم الذاتية والاستقلالية في مقابل الشعور بالعار:

تمتد هذه المرحلة من السنة الثانية إلى الرابعة من العمر وتتمثل فيها الأزمة النفسية الثانية، وفي هذه المرحلة يتم أكثر مظاهر التعلم وضوحاً نعني بذلك التدريب على ضبط عادات الخراج، والطفل الذي يجد معاملة حسنة من والديه يخرج متأكداً من ذاته وسعيدا وضابطا للنفس، وفخورا بها، أكثر من كونه شاعراً بالعار، وهذه الفترة تقابل المرحلة الشرجية عند فرويد.

ثالثًا: تعلم المبادأة في مقابل الشعور بالذنب:

تحدث الأزمة الثالثة في حياة الفرد عند بداية سن اللعب (حوالي السنة الثالثة والنصف) وتمتد طوال سنوات ما قبل المدرسة، في أثناء هذه الفترة يتعلم الطفل الذي ينمو نمواً سريعاً أن يتخيل وأن يلعب بنشاط وأن يوسع من مهارته، كما يتعلم التعاون مع الآخرين بما في ذلك أن يقود ويقاد. أما إذا أعيق نمو الفرد نتيجة الشعور بالذنب فإنه يصبح إنساناً خائفاً متردداً، واقفاً على هامش الأحداث معتمداً على الكبار لتلبية حاجاته وهذه الفترة تقابل مرحلة الكمون عند فرويد.

رابعًا: تعلم الاجتهاد في مقابل الشعور بالنقص:

وتقابل هذه الفترة سنوات المدرسة الابتدائية وجزءا من المدرسة الإعدادية، وهنا يبدأ الطفل بتعلم المهارات اللازمة للمشاركة في النشاطات الرسمية للحياة كأن يتعلم التعامل مع الجماعة تبعاً لقواعد عامة، وأن يتقبل

من اللعب الحر إلى اللعب المنظم الهادف، كما أن عليه إتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب. وهنا يشعر الطفل بأن عمل الواجبات المنزلية أصبح ضرورياً، أما الطفل الذي فقد الثقة من المراحل السابقة فيصبح شكاكا .

3-نظرية التعلق هي نظرية تصف طبيعة العلاقات طويلة المدى بين البشر، وتعتقد بأن الطفل بحاجة إلى تكوين علاقة مع شخص واحد على الأقل من مُقدمي الرعاية لكي يحصل النمو العاطفي والاجتماعي بطريقة طبيعية. فهي تشرح كيف تؤثر علاقة الطفل بأبويه على نموه. نظرية التعلق هي دراسة متعددة التخصصات، حيث تشمل نظرية التطور وعلم النفس ونظريات علم السلوك الحيواني .وشكلت شريحة الأطفال المشردين والأيتام مشاكل كبيرة عقب الحرب العالمية الثانية. وأشارت منظمة الأمم المتحدة عقب ذلك إلى الطبيب والمحلل النفسي جون بولبي بكتابة كتيب حول هذا الموضوع، والذي يحمل عنوان حرمان الأمومة .وقد تطورت نظرية التعلق كنتيجة لأبحاث بولبي التي تلته.

يتعلق الطفل الرضيع بالأشخاص ذوي الحس المرهف واللذين يستجيبون معه في التفاعلات الاجتماعية، والذين يظلون كمُقدمي رعاية بصفة مستمرة لبضعة أشهر خلال الفترة من 6 أشهر إلى عامين. عندما يبدأ الطفل بالحبو والمشي، يبدأ بإتلاف مقتنيات مُقدمي الرعاية كقاعدة آمنة ينطلق منها لاستكشاف ما حوله والعودة إليهم. تُؤدي استجابات مُقدمي الرعاية للطفل إلى تكون أنماط مختلفة من التعلق، والتي بدورها تُؤدي إلى تكوين نماذج داخلية لدى الطفل التي توجه إدراكه الحسي الفردي وأفكاره ومشاعره وتوقعاته في علاقاته الاجتماعية عند الكبر. ويعتبر قلق الانفصال والحزن الشديد اللذان يتبعان فقدان مُقدم الرعاية ردَّ فعلٍ طبيعياً وتكيفياً من الطفل المتعلق حديثًا. وكلما تطورت هذه السلوكيات كلما زادت إمكانية معافاة الطفل.

يرجع سلوك الطفل وثيق الارتباط بالتعلق إلى سعيه في المقام الأول إلى التقرب من رمز التعلق. ولصياغة نظرية شاملة حول طبيعة الترابط السابق لأوانه، بحث بولبي في مجالات عدة، بما في ذلك علم الأحياء التطوري، ونظرية العلاقة بالموضوع،[فرع التحليل النفسي ونظرية الأنظمة ومجالات علم سلوك الحيوان وعلم النفس المعرفي. وبعد وثائق أولية بدءًا من عام 1958، نشر بولبي دراسة شاملة في ثلاثة مجلدات في الفترة من 1969 حتى 1982، على الترتيب :التعلق والانفصال والفقدان.]

قدمت عالمة النفس التطويري ماري أينسورث بحثًا فيما بين 1960 و1970، والذي يعزز بدوره المفاهيم الأساسية للنظرية، وقدمت مفهومالقاعدة الآمن وطورت منهجاً لعدد من أنماط التعلق عند الأطفال :التعلق الآمن والتعلق الانطوائي والتعلق القلق/المشوش .وفي وقت لاحق، تمت إضافة نمط رابع للتعلق وهو التعلق المشوش أو غير المنتظم. وفي عام 1980 امتدت النظرية لتشمل التعلق عند البالغين.